

## صلاح الأبناء: الهدية الأبقى للآباء

د. فيصل بن غازي الحازمي



في زمن تتسارع فيه مظاهر العطاء المادي وتتنوع أشكاله، يبقى هناك نوعٌ من الهدايا لا يُقاس بثمن، ولا يُشترى بمال، بل يُزرع في القلوب ويُثمر عبر السنين؛ إنها هدية الصلاح في الذرية. تلك النعمة التي إذا أحسن غرسها، أثمرت برّاً لا ينقطع، ودعاءً لا يخبو، وذكرًا حسناً يمتد أثره حتى بعد رحيل الآباء. وليس في حياة الإنسان بعد نعمة الإيمان ما يوازي أن يُرزق بذريةً سالحةً تقَرّ بها عينه، وتكون له نوراً بعد رحيله؛ فالصلاح ليس مجرد نجاحٍ عابرٍ في ميزان الدنيا، بل هو امتدادٌ للعمر، وتجارةٌ رابحةٌ مع الله، وهديةٌ تتجدد آثارها في القبر قبل الآخرة.

وقد وجّه القرآن الكريم أنظار المؤمنين إلى هذه النعمة العظيمة، فجعلها من أعظم ما يُسأل الله، فقال سبحانه: (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)، فالصلاح توفيقٌ يُطلب، وعطاءٌ يُرجى قبل أن يكون نتيجة تربيةٍ وجهد. كما طمأن الله قلوب الآباء بقوله: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)، وكأن الصلاح ليس مجرد نجاة فردية، بل رابطة إيمانية تعيد لم الشمل في أعلى الدرجات.

وفي المقابل، يُنبهنا سبحانه إلى أن المال والبنين قد يكونان زينةً زائلةً إن لم يتوجها الصلاح، فقال: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ). فالقيمة الحقيقية ليست في وجود الأبناء فحسب، بل في أثرهم بعدنا، وفيما يكتبونه لنا من حسناتٍ ونحن تحت التراب.

وقد أكّد النبي ﷺ هذا المعنى بأبلغ بيان، فقال: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له"، فجعل الولد الصالح باباً مفتوحاً للأجر لا يُغلق بالموت، بل ويُزاد في فضل ذلك أن الله يرفع درجة العبد في الجنة بسبب ابنه، كما جاء في الحديث: "إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقال: باستغفار ولدك لك"، فيدرك الإنسان أن ما غرسه في دنياه أثمر له في أخراه.

وهذا الصلاح ليس أمراً عشوائياً، بل هو نتيجة أسباب تُبنى وتُغرس عبر الزمن. فأولها أن يكون الآباء أنفسهم نموذجاً للتقوى والقُدوة الحسنة، وقد أشار القرآن إلى أثر صلاح الآباء في الأبناء بقوله: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)، فالصلاح الأصل يمتد أثره إلى الفروع. ويتعزز ذلك بتربيةٍ لا تقوم على الأوامر المجردة بقدر ما تقوم على غرس الضمير الحي والقُدوة الحسنة؛ فالأبناء يتعلمون مما يرونه أكثر مما يسمعون، وعندما ينشأ الطفل على مراقبة الله، يتكون لديه وازعٌ يوجّهه حتى في غياب الرقيب.

كما أن التربية مسؤولية عظيمة، قال فيها النبي ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، فهي ليست مجرد رعاية مادية، بل بناء إنسان متوازن في إيمانه وأخلاقه وسلوكه. ولا يكتمل هذا البناء إلا بالدعاء، ذلك الرابط الخفي بين قلوب الآباء وأقدار الأبناء، والوسيلة التي تصنع التحولات الكبرى التي قد تعجز عنها التربية المباشرة، وقد لا تدركها نظريات التربية، مثل السلوكية، والبنائية، والمعرفية، والإنسانية ونظرية التعلم الاجتماعي، أو غيرهم.

ويمتد مفهوم الصلاح ليشمل شخصية الإنسان كاملة؛ في علاقته بربه، وبرّه بالديه، ونفعه لمجتمعه، ووازنه النفسي، ووعيه الفكري؛ فهو ليس تديناً منعزلاً، بل توازن ناضج يجمع بين الإيمان والأخلاق والعمل. ولكي يتحول هذا إلى واقع، يحتاج الأبناء إلى بيئة تحضنهم بالحب والثقة، وتمنحهم مساحة للحوار والتجربة، فالشخصية السالحة لا تُبنى بالمنع فقط، بل بالشعور بالقيمة والانتماء.

وفي النهاية، يبقى الصلاح رحلةً يعيشها الأبناء يخطئون فيها ويصيبون، لكن الأساس المتين هو ما يعيدهم دائماً إلى الطريق الصحيح. وحين يتحقق ذلك، يدرك الآباء أنهم لم يربّوا أبناءً فقط، بل زرعوا لأنفسهم حياةً لا تنتهي، وتركوا أثراً يُكتب لهم ما بقي الدعاء، مصداقاً لقوله تعالى: (وَتَكْتُبْ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ).

اللهم أصلح أبنائنا، واجعلهم قرة أعين، وامتداداً لأعمالنا، ونوراً لنا في الدنيا والآخرة.